الباب الاول

فى الوعظ ـ وفيه عدة فصول

الفصل الاول ـ فى مبادىء الوعظ والارشاد

الوعظ والموعظة والعظة كما فى القاموس تذكير الشخص مايلين قلبه من الثواب والعقاب يقال وعظته فاتعظ اذا أثرت فيه الموعظة وأفادت . والارشاد والرُّشْدُ بضم فسكون والرشد بفتحات. الهداية والاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه . يقال استرشد الشخص اذا طلب الرشد أو اهتدى ـ ويطلق الوعظ والارشاد فى العرف على الخطابة الدينية سواء كانت تعليمية لبيان المسائل الشرعية اعتقادية أو عملية أو أخلاقية . أو تأديبية لايقاظ الناس من غفلتهم بالنصح والتذكير بالعواقب

وموضوعه ـ أصلاح النفوس البشرية التى اذا صلحت صلح الجسد كله . وغايته صلاح المعاش والمعاد والفوز بسعادة الدارين . وفضله عظيم فأنه متعلق بطب الارواح. وتهذيب

النفوس لتصل الى السعادة . قال بعض الحكماء — الموعظة موقظة للقلوب من سنة الغفلة . ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة . ومحيية لها من موت الجهالة ومستخرجة لها من ضيق الضلالة .

وحكمه — الوجوب الكفائي عند التعدد . والعيني على من انفرد به فأن حاجة الناس اليه شديدة . وذلك لانه لما كان الانسان موضعا للسهو والنسيان . ومحلا للذهول والغفلة وجب أن يكون له مذكر دائم . وواعظ مستمر يهديه الى قصد السبيل وجادة المحجة كلما جارت به الخيالات الفاسدة . والوساوس الرديئة . ولتحصيل ذلك ورد الامر به كتابا وسنة قال تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون على المنكر وأولئك هم المفلحون » وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » رواه الترمذي وقال حديث حسن . الى غير ذلك من الآيات والأخبار .

ويمتاز فن الوعظ والأرشاد عن بقية فنون الخطابة بأمور منها أولا أنه وظيفة الانبياء والمرسلين . ومن على سنتهم من العلماء العاملين والعظماء المجاهدين . والهداة الراشدين — فأنهم أنما بعثوا لهداية العالم . وسن طريقة السعادة للناس فى الدارين بتعليمهم عند الجهالة وأيقاظهم وقت الغفلة . وأيقافهم عند حدود الأدب عند التمرد ليهضوا بهم من حضيض الجهل والرذيلة الى ذروة العلم والفضيلة ثانيا — من حيث موضوعه الذى هو أشرف الأمور وأخطرها أعنى الأمور الروحية — ثالثا — من حيث الفائدة أى سعادة الحياة بالتحلى بالفضيلة . والتخلى عن الرذيلة ثم الفوز بالسعادة الأبدية — وفوائده — معلوم ان الامراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها . وكثيرا ماتودى بحياتها اذا لم تسعف بالعلاج الناجع قبل استفحالها واشتداد خطرها . والقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل مايطفىء نورها . وقد يفقدها حياتها . وذلك بورودها موارد الغى والضلال . وانهماكها فى الشهوات واللذات والتهاون بالأوامر والنواهى . وعدم المبالات بأنواع الفسوق

والفجور وسيئات البدع . ونبذ الآداب الدينية . والأخلاق المحمدية . وارتكاب كل ما لا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبائح — فهذه لا شك أمراض النفوس وعللها . ولا علاج لها إلا مراهم الشريعة الغراء المركبة تركيبا علميا كيماويا دقيقا من أجزاء الخطب والمواعظ . والارشادات والنصائح فبهذه المواعظ والنصائح دون سواها تصح النفوس . وتسلم القلوب من المخاطر . وترجع عن غيها الى رشادها . وتعدل عن الطريق العوجاء الى الصراط السوى . وبالوعظ والارشاد تهذب النفوس . وتنتبه العقول من غفلتها . وتستيقظ من رقدتها . وتستنير بنور الطاعة بعد أن أظلمتها المعاصى . وعلى الجملة فالوعظ والارشاد هو الدواء الوحيد لصلاح العالم والعلاج الوحيد لشفاء القلوب من أمراضها . ولا سلامة العالم من مخاطر الشقاء إلا به — ولا ريب أنه متى ترك علاج القلوب من هذه الامراض استفحل أمرها . ومتى أهمل تطهير النفوس من أدران النقائص والرذائل . انتشر الفساد . وهلك العباد . وعم الشقاء . وزاد البلاء . وساء حال المجتمع الانسانى — لهذا جاء الدين الحنيف بالحث على الامر

بالمعروف والنهى عن المنكر . وتشديد النكير على من أهملها ومضار أغفالها تكاد تلمس باليد . والبرهان الحسى قائم على أن الامة التى انتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار كثرتهم وتأثيرهم . وأن المعنى الذى يتناولونه فى نصحهم وأرشادهم يكون أكثر انتشارا . وأشد رسوخا فى نفوس تلك الامة . وأن الامة اذا فرطت أو أفرطت فى شىء يستهان دائما على اعتدالها بوعاظها وخطبائها — فالواعظ الماهر . والخطيب الحكيم يستطيع بما وهبه الله من نور الحكمة . وقاطع الحجة . وساطع البرهان . وقوة البيان . ومتانة علمه بتأليف وتركيب الادوية النافعة أن يصحح القلوب من أمراضها . ويهذب النفوس من أدران النقائص والرذائل حتى ترجع عن غيها وتعود الى حد الاعتدال . وتتحلى بالفضائل والكمال

الفصل الثانى — فى آداب الواعظ — والمرشد

قد عرفت أن الدعوة الى الله تعالى مهمة الانبياء والمرسلين . والسادة العلماء نواب عن الانبياء فى هذه المهمة

فهم أمناء الله على شرعه. والقائمون على حدود الله. والحافظون لدينه القويم. والعارفون بما يجب له تعالى من كمال وتنزيه. فكانوا لذلك أئمة الناس وقادة الخلق يسيرون بهم نحو السعادة بما يرشدونهم اليه من التحلى بالفضيلة والتخلى عن الرذيلة اعتقد الناس فيهم ذلك. وأملوهم له فأحلوهم من أنفسهم محلا لم يبلغه سواهم من البشر حتى اكتسبوا فى قلوبهم مكانة يغبطون عليها. وربحوا منزلة تصبو اليها نفوس ذوى الهمة والفضل. وناهيك بقوم اذا فعلوا لحظتهم العيون. واذا قالوا أصغت لهم الآذان ووعت القلوب. فهم مطمح الانظار. ومحل الثقة. والبرهان القاطع والنور الساطع للناس أجمعين (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انى من المسلمين) حقا ليس أحد أعظم شأنا وأسعد حالا ممن جمع بين هذه الفضائل الثلاث فكان موحداً لمولاه عارفا بربه معتقدا لدين الاسلام عاملا بالخير داعيا اليه — وماهم الا طبقة العلماء العاملين الدعاة الى الله تعالى من ذوى القلوب الحية والايمان الصادق. والاخلاص الصحيح ولا ريب أن الله عز وجل ربط سعادة الانسان

فى الدنيا والآخرة بالوقوف عند حدوده وامتثال الاوامر واجتناب النواهى . وأنه على مقدار وقوف العبد عند حد الأدب يكون حظه من تلك السعادة ـ وغنى عن البيان أن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة العلماء . ومنهم وحدهم يتعلمها سائر الناس . فأذن سعادة الامة فى قبضة السادة العلماء . ومن هنا كانت وظيفتهم خطيرة ومسئوليتهم عظيمة ـ وتزداد وظيفتهم خطورة . ومسئوليتهم عظما اذا هم تصدروا للوعظ والارشاد ـ لهذا وجب أن تتوفر فى المرشد الدينى الصفات الآتية .

الصفة الاولى ـ العلم بالحقائق الدينية مع الصدق فى نشرها فأن مرتبة التبليغ عن الله تعالى لم تكن الا لمن اتصف بالصدق مع العلم . والمرشد وارث لهذه الصفة . فأما الجاهل الكذاب فهو ضال مضل وضره أقرب من نفعه اذ الجاهل لاتميز له بين الحق والباطل ولا معرفة ترشده الى اصلاح القلوب وتهذيب النفوس . ومن سلك طريقا بغير دليل ضل . أو تمسك بغير أصل زل وأما الكاذب فلعنة الله عليه .

الصفة الثانية ـ العمل بما يقول فلا يكذب فعله قوله. بل لا يأمر بالشيء مالم يكن هو أول عامل به ـ فأما اذا كان يأمر بالخير ولا يفعله . وينهى عن الشر وهو واقع فيه فهو بحاله هذا عقبة فى طريق الاصلاح وميهات هيهات أن ينتفع به. قال مالك بن دينار أن العالم اذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا وكان موضع حيرة البسطاء . ومحل سخرية فى نظر العقلاء وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فأنه سم مهلك سخر الناس به . واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الاشياء وألذها لما كان يستأثر به . كذلك الواعظ اذا أمر بما لا يعمله ـ ولذلك كان بعض الوعاظ لا يذكر لهم فى فضائل العتق حتى أمكنه الله من شراء رقيق فأعتقه فذكر لهم فضل من أعتق لله تعالى حتى يكون له تأثير على قلوبهم . ومن لم يكابد الليل وسهره وقيامه . فكيف يسمع منه فضل من أقامه وأحياه . وأيضا فالواعظ من الموعوظ يجرى مجرى الطابع من المطبوع فكما أنه محال أن ينطبع نحو الطين على الطابع

بما ليس منتقشا به كذلك محال أن يحصل فى نفس الموعوظ ماليس بموجود من الواعظ . فأذا لم يكن الواعظ ألا اذا قول مجرد من الفعل لم يتلق عنه الموعوظ ألا القول دون الفعل وأيضا فمثل المرشد من المسترشدين مثل العود من الظل . فكما أنه محال أن يعوج العود ويستقيم الظل كذلك محال أن يعوج المرشد ويستقيم المسترشدون . قال حجة الاسلام الغزالى أما الوعظ فلست أرى نفسى أهلا له لان الوعظ زكاة نصابه الاتعاظ فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة . وفاقد النور كيف يستنير به غيره ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ولذا قيل فى المعنى

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك أذا فعلت عظيم

وقال تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل . قال أبو الدرداء رضى الله عنه . ويل للجاهل مرة وويل للعالم سبع مرات اذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون

به ولذا قيل . زلة العالم زلة العالم . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا ولذلك قال الامام على رضى الله عنه قصم ظهرى رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه ومن هنا كان عقاب الوعاظ الذين تخالف أفعالهم اقوالهم أن تقرض السنتهم وشفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت عادت كما كانت نسأل الله تعالى السلامة

الصفة الثالثة . الحلم فلو كان غليظ الطبع انصرفت الناس من حوله وحرموا الانتفاع بعلمه . وذلك هو الشقاء وهو سببه وعلته

الصفة الرابعة . الشجاعة حتى لا تأخذه فى الله لومة لائم . فعن ابى ذر الغفارى رضى الله عنه أو صانى خليلى بخصال من الخير . أوصانى الا أخاف فى الله لومة لائم . وأن أقول الحق ولو كان مرا . فان كان جبانا ضعيف القلب عجز عن الاخذ بناصر الحق وتغيير المنكر وتقرب الى الناس بأنواع المداهنة وتوددا اليهم بضروب الملق وما هكذا تكون

الاطباء ولا اللائق بقادة الامم ـ الطبيب الماهر هو الذى اذا عرف نوع المرض في أى شخص كان بادر الى علاجه بما يستأصله حرصا على سلامة المريض وهو لا يبالى بكراهة المريض للدواء وتألمه من العلاج فأما اذا عمل لذلك حسابا وتساهل مع المريض حتى استفحل أمر المرض واستعصى على الدواء فأودى بحياة المريض فأنه غاش لا ناصح وسفيه لا حكيم

الصفة الخامسة . العفة واليأس مما فى أيدى الناس فأنه ان كان غير عفيف تطلع الى ما فى أيديهم وهان عليه ما يلاقيه من أنواع الذلة والاهانة فى سبيل الحصول على الحطام الفانى لهوانه عندهم . وثقله على نفوسهم . وهذا بلا شك هو السقوط الذى لا خلاص منه والفقر الذى لا غنى معه وقد ورد أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى قال (عليك باليأس مما فى أيدى الناس . واياك والطمع فأنه فقر حاضر)

الصفة السادسة ـ القناعة فى الدنيا والرضا منها باليسير فأن كان حريصا على الدنيا منهمكا فى طلبها كان حاله هذا داعيه

الترغيب فى حبها وحثها رأس كل خطيئة. وبذلك يكون مفسدا لا مصلحا وضارا لا نافعا والبيان أصدق شاهد على ذلك . فأنه على قدر زهادة العلماء فى الدنيا تكون مكانتهم فى نفوس الامة والتفافهم حولهم والاستماع لنصائحهم . والانقياد لارشادهم وعلى قدر تعلق العلماء بالدنيا تكون زهادة الناس فيهم وعدم الثقة بهم واتهامهم والنفرة منهم فلا يسمعون لهم قولا ولا يقبلون منهم نصيحة

الصفة السابعة . قوة البيان وفصاحة اللسان . وألا كان النفع به بعيدا بل كان مثال الخزى والعار على الارشاد وأهله وقد سأل الله موسى عليه السلام حين بعثه الى فرعون بأبلاغ رسالته الابانة عن حجته والافصاح عن أدلته فقال حين ذكر العقدة التى كانت فى لسانه والحبسة التى كانت فى بيانه (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) وقال (وأخى هرون هو أفصح منى لسانى فأرسله معى ردءا يصدقنى) وقال (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل الى هرون) رغبة منه فى غاية الافصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة لتكون الاعناق اليه أميل والعقول عنه أفهم

والنفوس اليه أسرع . وعلى الجملة فقوة البيان وفصاحة اللسان من جلائل نعم الله تعالى على المرشد . بهما يملك القلوب ويؤثر على الارواح

الصفة الثامنة . معرفة أحوال الناس فأنه اذا كان يجهل احوالهم أخطأ كثيرا فى علاج الارواح وكان كطبيب يداوى جميع الامراض بدواء واحد . وخطرُ ذلك على الأبدان جسيم فكذا على القلوب

الصفة التاسعة . التقوى والأمانة والتحرز لطاعة الله تعالى عن مساخطه ـ فانها صفة المورث الذى هو خلف عنه ولا يصح أن يكون فاسقا فى دينه فأنه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة فمتى لم يكن له تقوى تحجزه عن ارتكاب المآثم وأمانة تزعه عن اقتحام المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع ـ وأيضا فأنه لا يقبل قول الفاسق فتتلاشى على يديه وظيفة الارشاد ـ وناهيك بأنها ولاية شرعية ووظيفة دينية والفاسق لا يجوز أن يلى شيئا من أمور المسلمين . ومثله لا يتحامى عن الفتيا بغير علم

الصفة العاشرة . كبر الهمة وشرف النفس ليتحقق فيه مقام الوراثة فأنه مصلح داع الى الله تعالى — وكل انسان يجذبه طبعه وتحمله جبلته أثناء عمله الى ماعيل اليه — ومقام الدعوة أحوج شيء الى ذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة فكلما كان المرشد أقوى نفسا وأعلا همة كان في ذلك أمضى وعليه أقدر ومهما نقص في ذلك نقص من تأثيره في نفوس السامعين

الصفة الحادية عشرة . البعد عن العقائد الزائفة والأهواء الفاسدة كانكار كرامات الأولياء فان ذلك يشوش عليه كثيرا في سيره وينفر الناس منه — بل عليه عند الحاجة أن يبين للناس ماصح من الكرامات شرعا وجاز عقلا وعلى الجملة يجب على من يتصدى لأصلاح الناس أن يكون حسن الطريقة مرضي السيرة عنوان الفضيلة ومثال الكمال في أقواله وأفعاله وسائر أحواله . والا فهو فتنة في الأرض وفساد كبير (حقا) لو توفرت في الواعظ والمرشد صفات الكمال كان من غير شك وارثا نبويا وكوكبا يستضاء به (حقا) لو تحقق المرشد بهذه الصفات سهل عليه أن يخرج

الناس من ظلمات الجهل الى أنوار العلم . وينقذهم من ذل المعاصى الى عز الطاعة . واستطاع أن يداوى أمراض القلوب ويهذب النفوس بما أوتى من مهارة وحكمة وأمكنه أن يحول بين الأمة وبين النقائص والرذائل بسور منيع من زواجره ونصائحه وترغيبه وترهيبه (يقينا) لو كان المرشد على ماوصفنا لاستولى على القلوب وتغلب على الأرواح يتصرف فيها كما يشاء . وفى ذلك كفاية . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

« آدابه المستحبة »

ويحسن بالواعظ والمرشد أن يتحلى بأمور منها الورع باتقاء الشبهات والبعد عن مواضع الريبة . ومسالك التهمة فأن ذلك أبرأ لدينه مما يشينه وأسلم لعرضه من الطعن فيه وهذا أعون على الأقبال عليه والانقياد له لان حال المرشد يؤثر فى القلوب أكثر من كلامه وهكذا كانت طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلية السلف الصالح من الصحابة والتابعين والهداة المرشدين ، وألا فلا خير لمشين

فى دينه . ومطعون عليه فى عرضه — فقد رأى صلى الله عليه وسلم تمرة ملقاة فقال لولا أخشى أنها صدقة لأكلتها. وقدم على عمر رضى الله عنه مسك وعنبر من البحرين فقال والله لوددت أنى وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لى هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين فقالت امرأته عاتكة أنا جيدة الوزن فأنا أزن لك قال لا . فقالت لم ؟ قال لانى أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا (وأدخل أصابعه فى صدغيه) وتمسحى به فى عنقك فأصيب فضلا من المسلمين — وعن الفضيل ابن عياض أنه كانت له شاة فأكلت شيئا يسيرا من علف بعض الامراء فلم يشرب من لبنها بعد ذلك — وقيل لابراهيم بن أدهم رحمه الله ألا تشرب من ماء زمزم فقال لو كان لى دلو لشربت — اشارة الى أن الدلو من مال السلطان فهو من المشتبه — وقال ابن المبارك رحمه الله لأن أرد درهما من شبهة خير من أن أتصدق بمائة ألف ومائة الف ومائة ألف — وفى الاثر من وقف موقف تهمة فلا يلومن من إساءة الظن به ولهذا لما مر المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعه امرأته صفية رآه رجلان فأسرعا فقال لهما على رسلكما

أنها صفية بنت حيى خوفا عليهما أن يظنا به شيئا فيهلكا فقالا سبحان الله . وعظم ذلك عليهما . فقال أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وقد خشيت أن يقذف فى قلبكما شرا . ومنه يعلم أنه ينبغى للرجل اذا حدث زوجته أو محرمه على الطريق أن يقول هى زوجتى أو محرمى حتى لا يتهم . وأنه ينبغى للانسان أن يتحرز عن كل مايوهم نسبته الى مالا يليق . وهـذا متأكد فى حق العلماء . فلا يجوز أن يفعلوا مايوجب سوء الظن بهم وان كان لهم فيه مخلص . لأن ذلك سبب لعدم الانتفاع بعلمهم . قال الامام على رضى الله عنه — أياك وما يسبق الى العقول أنكاره وأن كان عندك اعتذاره — ومنها السكينه والوقار فى كل أحواله حتى فى مشيته وكلامه فذلك يكسبه الهيبة والاجلال لدى الناس . وهو أدعى الى الانتفاع به — ومنها محبة الاصلاح والتفانى فى خدمة الدين الحنيف بنشر فضائله بين الأمة . ومحاربة البدع والمنكرات حتى ينهض بها الى أوج الفلاح ودرج السعادة فأن ذلك خلق الانبياء والمرسلين . وصفة قادة الأمم المجاهدين المخلصين أما الخمول المتواكل فأنه

تكملة عدد . وعديم المنفعة — ومنها التمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والبعد عن البدع ظاهرا وباطنا . وفى السر والعلانية ليكون على القدم المحمدى . وتسهل عليه الدعوة الى الله تعالى بخلاف التهاون فى أمر السنة أو الميل الى البدعة فأنه يرفع الثقة به ويجلب عليه سخط الناس — كيف وهو ينصر السنة ويحارب البدعة ؟ — ومنها . أن لا يطلب على الارشاد أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكوراً من أحد بل يعمل لوجه الله تعالى وطلبا لمرضاته . وحسن مثوبته . وللتقرب إليه بهذه الوسيلة العظيمة إقتداء بأمام المرشدين رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يرى لنفسه منة على من يرشدهم ، وأن كانت المنة لازمة عليهم لزوم الاطواق للاعناق . فأنه السبب الاكبر لهدايتهم الى الحق - فلا يطلب الاجر ألا من الله تعالى كما قال عز وجل (وياقوم لا أسألكم عليه مالا أن أجرى ألا على الله) فأن المال ومافى الدنيا خادم البدن . والبدن مطية النفس . والمخدوم العلم أذ به شرف النفس . فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادما . والخادم

مخدوما - وذلك هو الانتكاس على أم الرأس - نعم له كفايته من بيت مال المسلمين عند الحاجة شأن كل من حبس نفسه على مصلحة عامة من مصالحهم ، وعلى الجملة ينبغي للمرشد أن يتحلى بالآداب الشرعية والاخلاق الدينية . حتى يكون وارثا نبويا . وعالما ربانيا

« آداب المرشد حال التأدية »

وهي كثيرة من أهمها أن يقتصر بالمسترشدين على قدر فهمهم فلا يلقي إليهم مالا تبلغه عقولهم ولا تسعه مداركهم لصعوبته ودقته فأن ذلك ينفرهم ويكون سببا في حرمانهم من الاستفادة منه . أو يخلط عليهم عقولهم ويوقعهم في مكان الحيرة وذلك إفساد لا اصلاح اقتداء في ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح من بعده . فعن بن عمر مرفوعا . أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم . وفي صحيح مسلم موقوفا على ابن مسعود ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم ألا كان فتنة على بعضهم وقال الامام علي رضي الله عنه وأشار الى صدره

أن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة ؛ وصدق كرم الله وجهه فقلوب الابرار قبور الاسرار — ولذا قيل لكل كل لكل عبد بمعيار عقله . وزن له بميزان فهمه — حتى تسلم منه وينتفع بك . وألا وقع الانكار لتفاوت المعيار ومن أهمها أيضا — أن يكتفى بذكر الجلى اللائق بهم ولا يذكر أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنهم . فأن ذلك يفتر رغبتهم فى الجلى ويشوش عليهم قلوبهم ويوهمهم البخل به عنهم . اذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق فما من أحد الا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله — وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع الشريف بحسب حاله ورسخ فى نفسه اعتقاد العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ولا تأويل وحسنت مع ذلك سيرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغى أن يُشوَّش عليه اعتقاده فأن ذلك موجب لحرمانه بل ينبغى أن يخلى وحرفته التى هو فيها وطريقته التى هو سالكها فأنه لو ذكر له تأويلات الظواهر انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص ؛

فيرتفع عنه السد الذى بينه وبين الشرور والقبائح وينقلب شيطانا مريدا يهلك نفسه وغيره . بل لا ينبغى أن يخاض مع العوام فى حقائق العلوم الدقيقة كما يقع من عوام المتصوفة اذ يسمعون من مشايخهم بعض كلمات دقيقة فى علم الحقيقة فيتشدقون بها فيضلون ويضلون — بل يختصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الامانة فى الصناعات التى هم بصددها وعلاء قلوبهم من أنواع الرغبة والرهبة بالجنة والنار وبلايا الدنيا وأهوال يوم القيامة كما نطق به القرآن وصرحت به السنة والآثار الصحيحة — ولا يحرك عليهم شبهة فأنه ربما تعلقت الشبهة بقلوبهم ويعسر عليهم حلها فيقعون فى الشقاء والهلاك بسوء تصرفه وبالجملة لا ينبغى أن يفتح للعوام باب البحث والجدال فانه ضياع لهم وليس من الحكمة فى شىء (ومنها) ألا ييأس من الاصلاح بل يثابر على عمله فأن لم يظهر تأثيره اليوم فقد يظهر غدا فأن الباطل زهوق ولا بد من يوم يتغلب فيه الحق على الباطل قال الامام على رضى الله عنه لا قيام للباطل الا فى غفلة الحق — ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يثن عزمه عن الدعوة الى الله تعالى عناد أهل الغى والضلال

ومقابلتهم له بالانكار وايقاع الأذى به وباصحابه المجاهدين. وفي نهاية الامر كان الظفر لهم وحقق الله لهم وعده قال تعالى (يأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) وجملة الامر أنه لايليق بالمرشد أن ييأس اذا لم يؤثر عمله لاول مرة بل عليه أن يكرر العظة مرة بعد أخرى كما يفعل الطبيب الناصح مع المريض . يصف له الدواء على قدر الداء فأذا لم يفد وصف له غيره وهكذا حتى يتم البرء ويصل به الى ساحل السلامة . فالقلوب القاسية بتكرير النصيحه والتذكير بالعواقب تلين بعد صلابتها قال تعالى (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) وبالله تعالى التوفيق

«الفصل الثالث ـ في مصادر فن الوعظ والأرشاد»

مصادره على قسمين أولية وثانوية (فالاولية) هي العلوم الدينية التي أساسها التوحيد وينبوعها الصافي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه (فعلم

العقائد) مبناه آيات التوحيد بل لا تزال آيات التوحيد قائمة إلى يوم القيامة صالحة لتخاطب جميع العالم على اختلاف العقول والمشارب والملل والنحل وهي بحقيقتها وقوتها داحضة لكل شبهة رغم الحاد الملحدين وزيغ المارقين . وما على المرشد أذا تعرض للعقائد ألا أن يرجع الى كتاب الله تعالى ويستخرج للمسترشدين درر العقائد من بحره الفياض ويكسوها بالثوب اللائق بها في مقام التخاطب حتى يورد الآية أو الآيات دليلا على قوله فلهذا تأثير عظيم في نفوسهم والعيان شاهد على ذلك (وعلم التكاليف العملية) التي سرها حفظ نظام العالم وأصلاح حال المعاش والمعاد والابتلاء والاختبار فأن كان من العبد الامتثال فالمثوبة . وأن كان الاباء فالعقوبة مرجعه آيات الاحكام والسنة الغراء (وعلم الاخلاق) الذي غايته أصلاح النفوس وأعداد الانسان لان يكون أنسانا حقيقيا يصلح للخلافة عن الله في أرضه هو معظم آيات الكتاب والسنة . (وقسم السمعيات) كذلك مرجعه الكتاب والسنة — اذا علمت هذا علمت أن بحرك الذاخر ومنهلك الصافي الذي لا ينضب ماؤه .

وأستاذك الذى لاريب فيه هو الكتاب والسنة ثم من بعدهما كل كتاب فى العقائد أو الأحكام أو الاخلاق لايبعد بك عن طريق الكتاب والسنة . وإن هذا المعنى لتجده كثيرا فى كتب الفحول من العلماء العاملين. والهداة المرشدين الذين قنعوا فى الدنيا ورضوا بالقليل منها . وعلقوا قلوبهم بالله تعالى . وحصلوا العلم ليكون لهم وسيلة الى الله عز وجل بأصلاح العباد كحجة الاسلام الأمام الغزالى وأبى طالب المكى . والقفال الشاشى . والراغب الأصفهانى. وأضرابهم من العلماء المتشرعين المتحققين رحمهم الله تعالى وجزاهم أحسن الجزاء فهؤلاء قد انفردوا بدعوة الخلق إلى الله تعالى وألفوا المؤلفات الصالحة التى انتفع بها العالم كله حتى أعداء الدين فى أخلاقهم ونظام حياتهم وكل هذا نتيجة التحقق والمحاذاة للكتاب والسنة والآداب النبوية شبرا بشبر وذراعا بذراع فهذه هى مصادر الوعظ الأولية التى منها يستمد لهذا أرشدك الى مزيد العناية بعلوم الكتاب والسنة مستعينا فى ذلك بحفظ القرآن الكريم وحفظ كثير من الاحاديث الصحيحة أو الحسنة الوجيزة القريبة المعنى لتكون

أسرع الى التأثير عند سماعها . وناميك بكتاب رياض الصالحين للامام النووى رضى الله عنه وكتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى فأنهما نعم العدة والبضاعة الثمينة للواعظ والمرشد كذلك أرشدك الى الرجوع كثيرا الى كتب المتحققين لتستقى منها ماينعش روحك . ويملأ قلبك ثقة بالله تعالى . ولا يتجافى مع أغراض الدين الحنيف الواضحة . ودعهم فى شطحاتهم ومعمياتهم فلا حاجة للناس بها بل هى رموز وضعوها لانفسهم وأمثالهم والله تعالى يقول (قل لا أسألكم عليه أجرا وما أنا من المتكلفين أن هو إلا ذكر للعالمين)

(القسم الثانى . المصادر الثانوية)

هى العلوم الوضعية سواء أكانت آلة للعلوم الدينية ومنها التاريخ والفلسفه أم لا كالعلوم الدنيوية التى يتوقف على كثير منها نظام الحياة من الرياضية والطبعية بل الصنائع والفنون لقربها من فهم السامعين تفيد تخطيب تشبيهات ومقابلات وأمثالا يتوصل بها الى التعاليم الدينية والمغازى الادبية يرشدك الى هذا أمعان النظر فى قوله

تعالى (وأعدوا لهم ما استطتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ومما تقدم تعلم أن مهمة الواعظ من أكبر المهمات . ووظيفته من أعظم الوظائف . وموقف المرشد فى الحياة موقف القواد والعظماء والمجاهدين المخلصين . وكما أنه لابد للقائد من أحكام العدة . وبعد النظر وأصالة الرأى ـ كذلك لابد للواعظ الدينى أن يكون متضلعا من العلوم الشرعية والاخلاق الدينية وعلوم الاجتماع . كما أنه لابد أن يكون محيطا تمام الأحاطة بما يريد أن يبينه للناس ملما بجميع أطرافه مستحضرا لما جاء فيه من الآيات القرآنية وصحيح الاحاديث النبوية وآثار السلف الصالح من الصحابة التابعين . والعلماء العاملين ليستطيع أن يوفى الموضوع حقه . فتعظم فائدته . ويأمن من الخلط والزلل وبعد تمام الاستحضار يلقيه على السامعين مع المتأنى والسكينة وأجابة السائل عن كل مايحتاج اليه وتفهيمه على على قدر استعداده باللطف والبشاشة والحلم . وكل هذا لاينى عنه من الوعظ والأرشاد شيئا الا اذا كان ماهرا فى طرق الارشاد عالما بكيفية التأثير على النفوس . واستمالة

القلوب وهى المهمة التى نحن بصددها . وسيأتيك من وسائل التأثير مافيه الكفاية

«الفصل الرابع - فى انواعه»

وهى ثلاثة - تعليم - وتأديب - وتهذيب (فالتعليم) يكون ببيان العقائد والتوحيد مراعى فيه ما يناسب كل طبقة . وبيان الأحكام الشرعية الخمسة من الواجب . والحرام : والمسنون . والمكروه . والمباح . مقرونا كل واحد منها بحكمة التشريع . فأن ذلك يسترعى الاسماع ويأخذ بمجامع القلوب

والتأديب - يكون بالترغيب والترهيب بأنواع البشارة والنذارة والغاية منه حمل العاصى على التوبة والانابة الى الله تعالى . والطائع على الاستمرار فى الطاعة والاستقامة

والتهذيب - يكون بتحديد الاخلاق الكريمة وبيان مزاياها فى المجتمع الانسانى والحث على التخلق بها وتحديد الاخلاق الذميمة وشرح مضارها والتنفير من الاتصاف بها . مستشهدا فى كل نوع من هذه الانواع بما جاء فيه

من الكتاب والسنة الصحيحة . وآثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة . وأحوالهم فى ذلك رضى الله عنهم أجمعين

فأن لهذا شأنا عظيما لا يستهان به فى الوصول الى الغاية المقصودة متى صدر من قلب سليم نقى طاهر من الأدناس فأن الموعظة اذا خرجت من القلب وصلت الى القلب . وأن خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان ـ وقد سئل الحسن البصرى . ما بالنا نعظ الناس فنبكيهم . وأنت تعظ الناس فتبكى . فقال . ليست النائحة كالثكلى والله الهادى الى سواء السبيل .

«الفصل الخامس فى انشائه»

ينبغى فيه مراعاة المرشد لاستعداد السامعين فيتنزل فى العبارة مع العامة على قدر عقولهم متجنبا الألفاظ اللغوية البعيدة عن مداركهم . ويتوسط مع الاوساط . ويتأنق مع الخاصة ـ فيكون مع جميع الطبقات حكيما يضع الاشياء فى مواضعها . وفى كل حال يتجافى فى كلامه عن

كل زخرف باطل . لأن مقصوده لا يتوقف على الرونق الظاهر والبهرجة الكاذبة بل على اختيار المعانى النفيسة وصوغها فى قالب لطيف . وإلباسها ثوبا شفافا حسنا مستعينا فى إبلاغها الى أذهان السامعين . وإنفاذها فى قلوبهم بإيراد الشواهد عليها من الكتاب والسنة الصحيحة . وآثار السلف الصالح . والحكم النثرية والشعرية . والملح التاريخية . والفكاهات الأدبية . وضرب الأمثال السهلة . والمشاهدات الحسية . الى غير ذلك مما يقتضيه المقام : وبذلك يستطيع أن يسترعى الأسماع . ويمتلك القلوب . حتى يقودها الى مباشرة العمل . ويرد النفوس الشريرة عن الغى الى الرشد وبذلك يمكنه أن يسحر الألباب حتى ينسى السامع من يقول . ويفكر فيما يقول . ويصلح نفسه بالتوبة النصوح والسيرة المرضية . بهذا يسهل عليه أن يقتلع من النفوس جذور الشرور والفساد . ويغرس فيها حب الخير والصلاح وروح الألفة والاتحاد . وبهذا يصلح حال الناس . وتنال السعادة فى العاجل والآجل وبالله تعالى التوفيق

(الفصل السادس — فى رعاية مقتضى الحال)

وينبغى للواعظ أن يلاحظ مايقتضيه احوال الأشخاص والمجتمعات الخصوصية والعمومية . ويراعى الزمان والمكان من القاء درس أو خطابة أو إيجاز أو اطناب فيما يقول . فأن لكل مقام مقالا ولكل نفس إعراضا واقبالا . وقد يكون الدرس أنفع للقوم لاشتماله على الأخذ والرد والوقوف على ما عساه أن يكون غامضا على السائل فلا يعدل عنه إلى الخطابة . وقد تفضل الخطابة الواحدة ألف درس فى بعض المجتمعات والأوساط فلا يعدل عنها إلى الدرس . كذلك الايجاز لا يكون إلا للخواص وأولى الألباب الراجحة والقلوب الحاضرة . وأما الأطناب فهو مشترك بين الخاصة والعامة ويكون مع الغبى والذكى

وليجعل القرآن الكريم فى ذلك إماما يقتدى به ومرشدا يهتدى بهديه . ألا ترى أنه إذا خاطب العرب أخرج الكلام مخرج الوحى والاشارة لشدة ذكائهم وقوة فطنتهم ورجاحة عقولهم . واذا خاطب غيرهم كبنى إسرائيل

أو حكى عنهم جعل الكلام مطولاً مبسوطاً معاداً فى مواضع كثيرة لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم واحتياجهم إلى الإكثار والإطالة. فما خاطب به مشركى العرب فى مقام الاستدلال على وحدانية الله تعالى وقدرته قوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) وقوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) وغير خاف عليك ما جاء فيه عن بنى إسرائيل. وعلى الجملة فأن للايجاز موضعا كما أن للاطناب موضعا فاستعمال أحدهما موضع الآخر خطأ واضح وعى فاضح كما روى عن جعفر بن يحي البرمكى أنه قال متى كان الايجاز أبلغ كان الاكثار عيا. وقال الخليل يختصر الكلام ليحفظ ويبسط ليفهم. وكانت العرب تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها ـ فالاطناب اذا لم يكن منه بد فهو إيجاز وهو فى الوعظ خاصة محمود كما أن الايجاز فى الافهام ممدوح والمرشد الحازم النابه هو الذى يتفرس فى حال

القوم ويتعين الفرض الملائمة للقيام بمهمته وبالله تعالى التوفيق

الباب الثانى

« فى الخطابة وفيه عدة فصول »

(الفصل الاول ـ فى تعريف الخطابة وفوائدها)

الخطابة فى اللغة كالخطاب وهى الكلام النفسى الموجه به نحو الغير للأفهام . وفي اصطلاح الحكماء هى صناعة تتكلف الاقناع الممكن فى كل مقولة من المقولات

« الباب الثانى » ـ معنى كونها صناعة أنها مجموع قوانين متعلقة بكيفية العمل فترشد الانسان الى طريق الاقناع وتتولى ترغيب الجمهور وحملهم على ما يراد منهم ومعنى تكلفها الاقناع الممكن أنها تتحرى فى كل مسألة مايفيد الاقناع وإن لم تتمكن دائما من ادراك غايتها لمانع قام . فشأنها كشأن باقى الصناعات التى تعد النفس لعمل خاص بمقتضى قوانين محدودة وإن لم تبلغ تلك الصناعات غايتها كالطب الذى غايته